دور الإســــــلام في الغرب

اعـــــداد
أ.د / أحمد السيد علي رمضان
عضو هيئة التدريس بجامعة الأزهر
كلية أصول الدين بالمنصورة - قسم العقيدة والفلسفة

تم استلام البحث : ١٥ / ٢ / ٢٠١٨ تم قبوله للنشر : ٤/ ٤ / ٢٠١٨

مقدمة :

إن الروح التي بثها الإسلام وحضارته في أرجاء العالم من خلال مبادئه وآثاره العملية هي الدافع والمجرى الذي أخذ يدب في أوصال أوربا . وهي التي مهدت للأوربيين سبل المجد والقوة وكونت منهم دولاً عتيدة سواء عن طريق التثقف بالعلوم الإسلامية أو باقتباس الفنون والأعمال والمخترعات التي أوجدتها الحضارة العربية في الأندلس ومصر والعراق.

فاغترفوا من معين خيرات الأندلس وكذلك جنى الأوربيون الفوائد العظيمة من ديار العرب والإسلام .

ولكي يتضح لنا دور الإسلام في الغرب سأتحدث عن النقاط التالية:

١- معابر انتقال الإسلام إلى الغرب:

لقد انتقلت الثقافات قديماً وحديثاً بالاتصال والاختلاط عن طريق الرحلة والهجرة، أو عن طريق الغزو والفتح وانتقلت أيضاً بالرسوم والنقوش، والآثار والمخلفات، والكتب والمصنفات [١].

ولذا نجد المعابر التي سلكتها الثقافة الإسلامية في وصولها إلى غرب أوروبا لم تخرج عن طريقين أساسيين هما: الاتصال الشخصي، الترجمة.

أولاً: الاتصال الشخصي:

لقد اتصل مسيحيو الشرق بالمسلمين على إثر فتوحات فارس والشام ومصر، وقاسموهم العيش والحياة، ونعموا معهم بتسامح ديني كان مضرب المثل واشتركوا في نشاطهم الفكري والثقافي، وقادوا الحركة العلمية الإسلامية الناشئة، وكان منهم أطباء

---

[١] انظر: د / إبراهيم بيومي مدكور. في الفلسفة. ضمن أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية ص١٦٢.

وكيميائيون، ورياضيون وفلكيون، أسهموا خاصة في نقل التراث اليوناني إلى العربية. وبدأ البحث العلمي الفلسفي في الإسلام طليقاً لا تقيده قيود الجنس ولا الدين فيأخذ العربي عن الفارسي، والمسلم عن المسيحي، وبالعكس. ودخل بعض مفكري المسيحيين مع المسلمين في حوار وجدل لم يخل من دقة، فقد لمس أموراً تتصل بالعقيدة وبعض المشاكل الدينية، كالتي عرض لها "يحي الدمشقي" [٢] فيما خلف من دراسات. وإذا كان المسيحيون لم يتصلوا بالكنيسة الغربية، فإنهم كانوا على صلة وثيقة بالكنيسة الشرقية وكانوا يتبادلون معها دروسهم وبحوثهم.

- وهناك اتصال آخر أوثق وأعمق، وهو اتصال مسيحيي الغرب بالمسلمين في الأندلس وصقلية [٣].

١ - الأندلس:

لقد فتح المسلمون الأندلس عام (٩٢هـ-٧١١م) وقضوا فيها نحو سبعة قرون وأقاموا فيها حضارة عظمى، وذلك لأن العرب اختاروا أن يوطدوا سلطانهم في إسبانيا عن طريق العلم، فانصرفوا نحو العناية بالآداب والعلوم والفنون. ولم يدخر الأندلسيون وسعاً في الحصول على علوم الشرق الإسلامي عن ثلاثة طرق هي: إما استدعاء علماء المشرق مثل أبي علي القالي إلى الأندلس، وإما سفر بعثات من عرب الأندلس إلى المشرق للتزود بالعلوم والمعرفة ثم العودة إلى الأندلس لنشر ما جمعوه من المعارف. ومن أمثلة هؤلاء يحي الليثي، وإما عن طريق جمع الكتب التي هي أهم وسائل النشاط العلمي، حتى قيل أن الخليفة الحكم الثاني استجلب من بغداد ومصر وغيرهما من ديار المشرق والمغرب عيون التاليف والمصنفات العربية في العلوم القديمة والحديثة، فكثر تحرك الناس في زمانه إلى قراءة كتب الأوائل وتعلم مذاهبهم حتى بلغت مكتبته الآلاف من الكتب [٤].

وبهذا نجد أن الأندلس طبعت بعلوم المشرق. فاستقدمت العلماء وجمعت الكتب ووازنت بين الآراء، ولم يمض وقت طويل حتى ازدانت المدن الأندلسية الكبرى، مثل قرطبة وأشبيلية وملقا وغرناطة بجامعات تدرس فيها العلوم الدينية والرياضية والعقلية.

---

[٢] مثل مشكلة الكلمة والجبر والاختيار.

[٣] انظر: د / إبراهيم بيومي مدكور. في الفلسفة. ضمن أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية ص١٦٢،١٦٣.

[٤] انظر: د/ سعيد عبد الفتاح عاشور. أوروبا العصور الوسطى. جـ٢ ص٤٩١.

ولم يقتصر طلب العلم في هذه الجامعات على الأندلسيين المسلمين فحسب، بل كان يأتيها الطلاب من أنحاء أوروبا المسيحية أيضاً [٥].

وبهذا اتصل المسيحيون الأوربيون بالأندلس اتصالاً وثيقاً، حيث ترسل أوروبا البعثات العلمية إلى ديار الأندلس لتلقف العلوم والفنون والصناعات في معاهدها الكبرى بنتيجة الدعايات التي انبثت في كل محفل وقصر وسراي بمعظم المقاطعات الأوروبية كإنجلترا وفرنسا وهولندا وتوسقانا. وقد ذكر المؤرخ الفرنسي "فالبير" ثلاثة، منها: الأولى فرنسية وكانت برئاسة الأميرة "اليزابيث" ابنة خالة "لويس السادس" ملك فرنسا. والثانية انكليزية وكان على رأسها البرنسيس "دوبان" ابن الأمير جورج صاحب مقاطعة "ويلز"، ويقول المؤرخ أنه ربما كان ولي عهد انجلترا يومئذٍ. ومما ذكره "فالبير" أيضاً عن البعثة الثالثة وما يليها أنها كانت إسبانية وبعضها من مقاطعات "سافوا" و"البافار" و"ساكونيا" و"الرين" وقد بلغ عدد أفرادها عام ٣١٢هـ ١٢٩٣م وحده سبعمائة طالب وطالبة. وكان من جملة العوامل التي حفزت أوروبا على إرسال بعثاتها العلمية هذه إلى ديار الأندلس ما قاله العالم الفرنسي الكبير "غوستاف لوبون" بصدد التفات الشعوب الأوروبية إلى الأندلس والزحف إلى تلك الديار لتلقف أنواع الفنون والصناعات والثقافات المختلفة وهو كما يلي:

لقد بلغ من نبل الدعوة التي حملها أبناء الجزيرة العربية إلى العالم في كل مكان أن أصبح قادة هؤلاء الأقوام الذين تبينوا أن بلادهم ستكون ممراً لجحافل العرب يترقبون في لجج وشوق اقتراب ساعة ظهور تلك الطلائع المتهللة نصراً والحاملة لشعلة العدل والرحمة والحضارة حتى يقدموا القرابين ويذبحوا الذبائح لإبطالها، لأن السمعة الطيبة وسمو الأهداف كانا يسبقان خيول أبناء يعرب المجلية في فيافي آسيا وأفريقيا. وكانت تلك الخلال المحببة ينتشر عبيرها المعطر على الناس في الشرق والغرب قبل وصول العرب إلى مقاطعاتهما المديدة الكثيرة بألوف الفراسخ [٦].

وكانت الحضارة الإسلامية في الأندلس تشع من مراكز متعددة مثل: قرطبة وأشبيلية وغرناطة وطليطلة، حيث كان العرب والمغاربة هم الذين ينشئونها، وهم الذين يسميهم الأوربيون بالمور أو الموريسكيون، وقد كانت غالبية سكان الأندلس -وهم من المسيحيين- قد تشبعوا بالحضارة العربية، بحيث أنهم هجروا لغتهم ليتكلموا العربية

---

[٥] انظر: عمر فروخ. أثر الفلسفة الإسلامية في الفلسفة الأوروبية. صـ ٥.

[٦] انظر: طه المدور. بين الديانات والحضارات. صـ ٦٦،٦٧.

وعرفوا بسبب ذلك بالموز آراب "Mozarabes" وهي كلمة تعني مستعرب العربية واضطر الأساقفة من رجال الدين إلى أن يترجموا الإنجيل إلى العربية [٧].

وإذا كان المشرق الإسلامي امتاز بفلاسفته كالكندي والفارابي وابن سينا، فإن الأندلس كان له أيضاً فلاسفته الذين ضربوا الرقم القياسي في حرية التفكير وتركوا أبعد الأثر في الفكر الأوروبي، وأهم فلاسفة الأندلس ثلاثة: ابن باجة وابن طفيل وابن رشد وهؤلاء جميعاً كان تأثيرهم في غرب أوروبا أكثر منه في العالم الإسلامي.

- ويهمنا " ابن رشد " بالذات بوصفه أكبر شارح لفلسفة أرسطو، ذلك أنه أعجب بأرسطو إعجاباً شديداً جعله يضع ثلاثة شروح على فلسفته.

وفي ذلك يقول "رينان": ألقى أرسطو على كتاب الكون نظرة صائبة ففسره وشرح غوامضه، ثم جاء ابن رشد فألقى على فلسفة أرسطو نظرة خارقة ففسرها وشرح غامضها. فابن رشد رفض أن يحيد عن طريقته من أجل ذلك الغرض وهو التقريب بين آراء أرسطو والدين، واختار أن يعبر عن آراء أرسطو تعبيراً صادقاً، فقال: أن العقل العلم المطلق أبدي قابل للانفصال عن الجسم، وأنكر الخلود والبعث، وصرح بأن على المرء ألا ينتظر ثواباً أو عقاباً غير ما يلقاه في الحياة الدنيا.

ويبدو أثر فلسفة ابن رشد واضحاً في خروج كثير من الغربيين على تعاليم الكنيسة وتمسكهم بمبدأ حرية الفكر وتحكيم العقل على أساس المشاهدة والتجربة. وقد ظهر أثر آراء ابن رشد واضحاً في فلسفة القديس توما الأكويني "١٢٢٥-١٢٧٤" حتى أن الفصول التي كتبها " توما " في العقل والعقيدة وعجز العقل عن إدراك الأسرار الإلهية، ليست إلا مقابلاً لما كتبه " ابن رشد " في باب "فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة". هذا إلا أن كلاً منهما سلك طريقاً واحداً في معالجة وجود الله ووحدته. وقد بلغ من تأثر "توما" بفلسفة ابن رشد أن كتاب "الخلاصة Summa" لتوما يحوي بعض مذاهب إسلامية الأصل مما يثبت أن الأثر الذي تركه ابن رشد في عقلية الغرب لم يكن مجرد شرح لكتابات أرسطو، وإنما كان أبعد وأعمق من ذلك بكثير.

ومهما كان الأمر، فمن الواضح أن آراء " ابن رشد " السابقة خالفت تعاليم الكنيسة ولذلك أحدثت هياجاً عاماً في غرب أوروبا، وسرعان ما ظهرت نقمة الكنيسة على أرسطو و " ابن رشد " جميعاً، فأصدرت عدة قرارات في القرن الثالث عشر بتحريم تعليم آرائهما وتبادلها، مع توقيع قرار الحرمان ضد كل من يردد فلسفة هذا أو ذاك، على أن هذا الحظر لم يحل دون انتشار فلسفة " ابن رشد " وآرائه في البلاد الغربية فاستمرت تدرس في الجامعات الأوروبية في القرن الثالث عشر، وظل تأثيرها

[٧] انظر: د/ عبد المنعم ماجد. تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى. صـ ٢٨٧.

متغلغلاً وبخاصة في إيطاليا حتى القرن السادس عشر. ويكفي " ابن رشد " جرأة أنه أطلق لتفكيره العنان فضرب مثلاً فريداً في حرية الفكر، ولم يبال بتهم الزندقة والكفر والإلحاد التي وجهت إليه، وإنما أعلن آراءه في صراحة تامة حتى اعتبره الغربيون أكبر مثل لحرية الفكر، بل إن "جوستاف لوبون" يري أن ابن رشد سبق أرسطو في بعض الأحيان وأن فلسفته لا تزال مقبولة. أما "جيوم" فقال عن ابن رشد أنه ينتسب إلى أوروبا والفكر الغربي أكثر من انتسابه إلى الشرق والفكر الإسلامي. ويكفي أن "دانتي" وضع ابن رشد في قائمة الفلاسفة العظام الذين يفخر بهم التاريخ [٨].

ولما أفل نجم العرب في الأندلس، وظهرت الحركة المعروفة باسترداد الأراضي من المسلمين "Reconquista" نجد أن الملوك الأسبان المسيحيين يغترفون من حضارة المسلمين ويأخذون بمظاهرها، ولا يستطيعون أن يقفوا أمامها لتقدمها، فكان الذين ينقلونها لهم يعرفون بأسماء أشهرها: المدجنون "Mudejares" -وهي من دجن بالمكان أي أقام- أو المهاجرون أو المداخلة أو المعاقدون أو المعاهدون أو حتى الموريسكيون، وهم المسلمون الذين بقوا بعد الركونكستا، وإن كان بعضهم قد تنصر، كما أن معظمهم تجمع في " طليطلة "، فنسمع أن الملك ألفونسو العاشر الملقب بالحكيم "Alfonso El Sabio" (١٢٥٢-١٣٨٤م) ملك قشتالة الذي كان نصيراً للعلم والفلسفة، قد فتح في عاصمة ملكه مدرسة للترجمة في طليطلة، جعل فيها علماء مسلمين ينقلون إلى الأسبانية أو القطلونية أو اللاتينية كتب العرب [٩].

وكان يريد بالقشتالية أن تصبح لغة عالمية، وتوافر لطليطلة بعض كبار المترجمين، فنظمت فيها جماعات للترجمة، وعلى رأس كل جماعة مراجعون ومحققون فينقل أولاً من العربية إلى العبرية أو منها إلى القشتالية، ثم يترجم من العبرية أو القشتالية إلى اللغة اللاتينية، وكم يذكرنا هذا بصنع العرب، فقد كانوا ينقلون أولاً من اليونانية ومجيدوها قليلون، إلى اللغة السريانية، وليس بعسير ترجمة هذه إلى العربية، ومع هذا فقد كان بين اللاتين من يترجم من العربية إلى اللاتينية رأساً، كما كان بين العرب من يترجم من اليونانية إلى العربية [١٠].

وقد مر بطليطلة أغلب المشتغلين بالترجمة، ومنهم من استقر فيها وأقام بها، ويمكن أن نذكر من بينهم إبراهيم بن داود الإسرائيلي "١١٨٠" والراهب هرمان

---

[٨] انظر: د/ سعيد عبد الفتاح عاشور. أوروبا العصور الوسطى. جـ٢ ص٥٠١-٥٠٣.
[٩] انظر: د/ عبد المنعم ماجد. تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى. صـ ٢٨٨.
[١٠] انظر: د / إبراهيم بيومي مدكور. في الفلسفة. - ضمن أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية. ص١٦٦.

الألماني "١٢٧٢" وعلى رأسهم جيرار الكريموني "١١٨٧" ذلك الإيطالي الذي اجتذبته الترجمة، فقصد طليطلة، وعنى خاصة بالمؤلفات العلمية، وترجم في الطب والكيمياء، والفلك والرياضة وإلى جانبه المطران دومنيك جندسا لينوس "١١٥٠" الذي عنى بالناحية الفلسفية، وإليه يرجع الفضل في إدخال عدد من فلاسفة المسلمين في العالم اللاتيني، ولم يقنع بالترجمة، بل كتب وألف، وكتبه أشبه ما تكون بملخصات لبعض الكتب العربية، وهو في هذا شبيه ببعض مترجمي العرب الذين ألفوا أن يضعوا مداخل للدراسات المختلفة، ولست في حاجة إلى أن أشير إلى أن ترجمة القرن الثاني عشر هذه في طليطلة كانت تتم على مقربة من ابن رشد، وفي الوقت الذي كان يضع فيه شروحه ومؤلفاته في أشبيلية وقرطبة [١١].

وعلى العكس كانت البلاد الأوروبية التي تحيط بالأندلس يخيم عليها الظلام، فنجد أن النور الذي في الأندلس يتسرب إلى ربوع أوروبا، فعن طريق الأندلس انتقلت حضارة العرب إلى أوروبا، حيث أمدتها بالعلم والثقافة الإسلامية، وقضت في ذلك نحو ثلاثة قرون [١٢].

٢ ـ صقلية:

لقد فتح المسلمون صقلية على يد دولة الأغالبة "تونس والجزائر" في عهد العباسيين، وذلك في القرن الثالث الهجري/العاشر الميلادي، وحكموها نحو قرنين ونصف ازدهرت فيها الحضارة الإسلامية ازدهاراً كبيراً وعاش فيها مسيحيو الغرب مع المسلمين جنباً إلى جنب، كما عاش مسيحيو الشرق [١٣].

ولقد كانت صقلية قبل المسلمين اتخذها الروم وكراً يهاجمون منها الأراضي الإسلامية، ولما جاء الفاطميون وأنشئوا خلافتهم في أرض المغرب، استولوا على صقلية كإرث عن الأغالبة، بل إنهم أكدوا سيطرتهم أيضاً في جنوب إيطاليا حتى "روما=Roma" وهي التي سماها العرب قلورية "كالبريا=Calabre". وقد كان احتلال العرب لهذه البلاد الإيطالية معناه أنه لابد وأن تشملها الحضارة الإسلامية المتفوقة وقتذاك، وأصبحت بلرم "بلرمو=Palermo" ومسيني "Messine" وسرقوسة

---

[١١] انظر: د/ عبده فراج. معالم الفكر الفلسفي في العصور الوسطى. صـ ١٩٠،١٩١.
[١٢] انظر: د/ عبد المنعم ماجد. تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى. صـ ٢٨٨.
[١٣] انظر: د /إبراهيم بيومي مدكور. في الفلسفة. ضمن أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية ص١٦٣.

"سيراقوز=Siracusa" وبوة "Pouilles" وباري "Bari" مراكز الحضارة الإسلامية اليانعة في إيطاليا [١٤].

وفي صقلية اهتم المسلمون بالزراعة، فحفروا الترع والقنوات، وأنشئوا المجاري المعقوفة التي كانت مجهولة قبلهم، كما أدخلوا زراعة القطن وقصب السكر. وفي الصناعة استغلوا ثروة الجزيرة الطبيعية، فاستخرجوا منها الفضة والحديد والنحاس والكبريت، وأدخلوا فيها صناعة الحرير. أما تجارة صقلية فقد اتسع نطاقها على أيام العرب، بعد أن بلغت الحضيض في العصر السابق مباشرة، ولم يبق الآن في صقلية من مباني العرب سوى القليل النادر، ولكنها تشهد جميعاً بالروعة والجمال الأخاذ [١٥].

ويوم أن سقطت صقلية تحت حكم " النورمان " في القرن الخامس الهجري/الثاني عشر الميلادي، وهم عنصر مسيحي من هجرة شمالية، ظهروا في الوقت الذي ظهر فيه السويديون، استولوا على صقلية وجنوب إيطاليا من الفاطميين، ومع ذلك فلم يقض على الحضارة الإسلامية فيها، بل إن " النورمان " كانوا عاملاً فعالاً في نشر هذه الحضارة.

والواقع أن عداوة " النورمان " للمسلمين كانت في أول سكنى " النورمان " جزيرة صقلية، فكانوا يغزون في أفريقية وسواحل مصر والشام، ويستولون على مدن المسلمين، ومع ذلك فقد كان النورمان يتذوقون الحضارة الإسلامية، ويتوجون أنفسهم بعبارة لا إله إلا الله ويتخذون علامة ملوك الإسلام: "الحمد لله حق حمده" ويلبسون العمائم مثل العرب ويسلكون في قصورهم طريق المسلمين، وعمالهم وعبيدهم ومنجميهم وجواريهم وحظاياهم أيضاً من المسلمين، وكان بلاطهم يعج بالعلماء المسلمين، فنجد الإدريسي الجغرافي العربي الكبير يهدي كتابه إلى روجر الثاني، ويسمي كتابه الروجاري [١٦].

- وبلغ التبادل الثقافي بين المسيحيين والمسلمين في صقلية قمته في عهد فردريك الثاني "١٢٠٥" الذي أولع بالعلوم الإسلامية وعرف لها قدرها، والرسائل الصقلية المتبادلة بينه وبين ابن سبعين خير شاهد على ذلك [١٧].

---

[١٤] انظر: د/ عبد المنعم ماجد. تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى. صـ ٢٨٨،٨٩.
[١٥] انظر: د/ سعيد عبد الفتاح عاشور. أوروبا العصور الوسطى. صـ ٤٨٨.
[١٦] انظر: د/ عبد المنعم ماجد. تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى. صـ ٢٨٩.
[١٧] انظر: د/ إبراهيم بيومي مدكور. في الفلسفة. ضمن أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية ص١٦٣.

وكان يشجع الترجمة لعلوم الإسلام إلى اللاتينية واليونانية أو حتى الإيطالية الدارجة، التي كانت قد بدأت في الظهور، وأسس جامعة نابل "نابلي Napoli" بحيث اتهم بأنه مالأ للمسلمين، ولما حضر في حملة صليبية إلى الشرق في عام ١٣٢٧م فإنه صالح سلطان المسلمين، مما دعا البابا إلى حرمانه [١٨].

وبهذا يبدو لنا الفارق كبيراً إذا ما قارنا بين أحوال صقلية من النواحي الثقافية والعمرانية والاقتصادية والاجتماعية عند بداية احتلال العرب لها، وبين أحوالها عند نهاية سيطرتهم عليها، على أن الحضارة العربية لم تنته بانتهاء حكم المسلمين للجزيرة، وإنما وجدت هذه الحضارة في ملوك النورمان خير مشجع لها، ومن الواضح أن سبب حماية ملوك النورمان لعرب صقلية هو أنهم لمسوا تقدمهم في الفنون والعلوم والصناعات وأدركوا أن تشجيع الجالية العربية في الجزيرة سيعود عليهم بفوائد عظيمة، لذلك شمل روجر الأول "١٠٦١-١١٠١" العرب برعايته وأحسن المحافظة عليهم وحمايتهم، بل كتب مراسيمه بالعربية إلى جانب اللاتينية واليونانية [١٩].

وهكذا عاشت الثقافة العربية في صقلية دهراً طويلاً، وكان بلاط ملك صقلية "روجر الثاني" وابنه غليام الأول عربياً إسلامياً، حتى اتهم " روجر " بأنه مسلم لما في حياته الشخصية من الشبه بحياة المسلمين ولأنه رفض أن يقوم بحملة صليبية مع شدة إلحاح البابا، وقد اجتمع في بلاط صقلية العلماء المسلمون والنصارى واليهود وعلماء من اليونان والإنكليز [٢٠].

وفي "بلرمو" عاصمة صقلية، نشطت حركة الترجمة في القرن الثالث عشر تحت رعاية الإمبراطور فردريك الثاني الذي شاء أن ينشر الحكمة اليونانية والعلوم الإسلامية، وكان على صلة بحكام الشرق وولاته، واستطاع أن يجمع ثروة طائلة من المؤلفات العربية، ولعله حصل كتب ابن رشد جميعها، ولما يمض على موته ربع قرن ودعا إليه كبار المترجمين، وفي مقدمتهم ميشيل إسكوت "١٢٣٥" تلك الشخصية شبه الأسطورية التي كانت مملوءة نشاطاً وحركة، والتي عزى إليها عدد غير قليل من المترجمات ويظهر أنه كان يعرف كيف ينظم أعمال الترجمة، فكان يوزع العمل على عدد من التلاميذ والأعوان، ثم يتابع نشاطهم ويراجع أعمالهم، وبذا استطاعت بلرمو أن تترجم أحسن مؤلفي العرب، وعلى رأسهم ابن رشد، وقد حرص الإمبراطور على أن

---

[١٨] انظر: د/ عبد المنعم ماجد. تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى. ٢٨٩،٢٩٠.
[١٩] انظر: د/ سعيد عبد الفتاح عاشور. أوروبا العصور الوسطى. صـ ٤٨٩.
[٢٠] انظر: عمر فروخ. أثر الفلسفة الإسلامية في الفلسفة الأوروبية. صـ ٦.

يوزع ترجماته على الجامعات الأوروبية، رغبة في نشر العلم، وبدافع من منافسة البابا في الغالب.

ولم تقف الترجمة عند القرن الثالث عشر، بل حولت ترجمات في القرنين التاليين ولكنها كانت في الجملة أعمالاً فردية أو إعادة لترجمات سابقة، ولم يكن المترجمون في مستوى واحد، وقد تفاوت ترجماتهم تبعاً لتمكنهم من اللغة التي ينقلون عنها واليها، وكان يحلو لـ " روجر بيكون " أن يوازن بينهم وأن يفضل ترجمة على أخرى، ويظهر أنه كان على صلة ببعض من كانوا يجيدون العربية، وفي ذلك ما مكنه من الحكم على أشياء لا يلم بها من جهل اللغة، وتنزع الترجمة اللاتينية، بوجه عام، منزع الحرفية، وتلتزم ترتيب الحملة العربية، مما أدى إلى دخول بعض الألفاظ العربية في اللغة العلمية الفلسفية، ومع هذا استطاع المترجمون أن يضعوا طائفة من المصطلحات الملائمة [٢١].

٣ ـ الحروب الصليبية "بلاد الشام":

إن السبب في إشعال الحروب الصليبية سنة ١٠٩٦م هو "البابا أوربان الثاني" حيث دفع الكثير من ملوك أوروبا إلى الاشتراك فيها والتي استمرت أكثر من قرنين.

لقد كان للبابوية حينئذ نفوذ معترف به على كل ملوك أوروبا وشعوبها، وهذا أدى إلى تحريض الشعوب والملوك على القيام بحرب صليبية لانتزاع الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين، وتوالت الحملات وتوالت أسباب فشلها طيلة القرنين الثاني عشر والثالث عشر حتى بلغت عدتها تسع حملات بين سنة ١٠٩٥ وسنة ١٢٩١. واستطاع المسلمون في معارك خالدة أيام عماد الدين زنكي "١١٤٤" وابنه نور الدين "١١٤٨" وأيام صلاح الدين الأيوبي "١١٨٧" وأيام الملكة شجرة الدر "١٢٥٠" أن يحرزوا انتصارات حاسمة اضطرت البابا إنوسنت الرابع والملك لويس التاسع سنة ١٢٥٣ إلى جس النبض لعقد محالفة مع المغول لتطويق المسلمين، ولكن المغول آثروا الانفراد بالعمل لحساب أنفسهم فنجحوا في الاستيلاء على بغداد وإزالة الخلافة العباسية سنة ١٢٥٨ وفشلوا في الاستيلاء على مصر والشام بعد هزيمتهم في عين جالوت سنة ١٢٥٩ وخرج آخر جندي صليبي من بلاد الشرق الإسلامي يوم سقط حصن عكا في أيدي المسلمين سنة ١٢٩١. وسلك المسيحيون من أبناء البلاد الإسلامية طيلة هذه الحروب سلوكاً دل على أن رابطة الدم بين الأشقاء في الوطن تفوق بكثير رابطة الدين أو المذهب بينهم وبين أعداء وطنهم.

---

[٢١] انظر: د/ إبراهيم بيومي مدكور. في الفلسفة. ضمن أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية ص١٦٧،١٦٨.

- لكن إذا كانت هذه الحروب قد انقضت من دون أن تحقق شيئاً من الأهداف التي قامت من أجلها فإنها حققت حدثاً أهم بكثير في تاريخ الحضارة ألا وهو نقل الفلسفة والعلوم العربية إلى أوروبا [٢٢].

- إن وجود الصليبيين هذه المدة في الشرق الإسلامي جعلهم على اتصال بالمسلمين والذي له آثار سياسية وعسكرية واجتماعية، فكان هذا الاتصال هو السبب في ضعف سلطة الكنيسة وخلق نواة جديدة للوحدة الأوروبية حيث تحققوا على نطاق واسع من وجود حضارة متفوقة على حضارة أوروبا تفوقاً لا ريب فيه، خصوصاً في ميدان الثقافة الفلسفية والعلمية التي ورثها المسلمون عن اليونان ونموها بما اقتبسوه من علوم الهند وما أضافوه من مبتكراتهم [٢٣].

وبعد عودة الحملات الصليبية بدأ المفكرون من رجال هذه الحملات يعملون في بلادهم على تقليد الدول الإسلامية فيما اقتبسوه كتشكيلات الدواوين والمجالس وبقية المصالح التي يتكون منها جهاز الحكومة الفعال، كما عملوا على تحسين أصول جباية الأموال وطرح الضرائب وتنظيم الميزانيات وإحصاء الدخل والخرج وإيجاد التوازن بينهما، وكانت مملكة "بافاريا" النموذج الحسن لهذه التجارب والتأسيسات، ثم تدرجت منها رويداً رويداً إلى بقية الممالك الأوروبية، حيث كانت "بافاريا" تبعث بالخبراء إلى كل دولة ترغب في إدخال هذه التجددات المدنية والتوجيهية على تشكيلاتها الحكومية [٢٤].

وجاء بعد ذلك دور الالتفات إلى تأسيس دور العلم ونشر لوائه في المحيط الأوروبي المفعم بالتردي والجهل والتعصب الديني والحروب الناتجة عن هذه النعرات المذهبية والإقطاعية والعرقية، فتأسس على يد الداعية الإنكليزي "ردولف جوني" أول معهد علمي في لندره نفسها، وأدخل اليه أبناء الأمراء والأعيان والمتمولين، وأخذ في تدريس العلوم التي اقتبسها المتتبعون الإنكليز من الشرق بقدر ما وسعت مواهبهم الضعيفة فقسموا الصفوف على الترتيب الذي تعلموه في المعاهد الإسلامية هم وأسلافهم عندما كانوا في مصر والعراق أي خلال احتكاكهم بالمسلمين في الحملات الصليبية التي قاموا بها طيلة أكثر من قرنين.

هذا المعهد كان يدرس بقية العلوم الأولية كالحساب وأصول الكتابة الحديثة "أي ما اصطلح العرب على وضعه" وجرب بعض الأساتذة تدريس الكيمياء والجبر وبعض

---

[٢٢] انظر: عبده فراج. معالم الفكر الفلسفي في العصور الوسطى. صـ ١٨٩، ١٩٠.
[٢٣] انظر: نفس المصدر. صـ ١٨٩.
[٢٤] انظر: طه المدور. بين الديانات والحضارات. صـ ١٤٨.

العلوم التي اقتبسوها من الشرق، وتدل التتبعات التاريخية على أن الإنكليز نجحوا في إحداث نواة علمية في البيئات الراقية سواء في لندرة أو بعض المقاطعات الأخرى من بلادهم.

وهنا نجد أن عناصر أوروبية كثيرة أخذت تبعث بأبنائها وبناتها إلى معاهد إنكلترا العلمية الجديدة ليتلقى هؤلاء مختلف أنواع العلوم فيها.

وهكذا نجد الفضل في نجاح هذه المعاهد كان يرجع إلى الوعي الذي ظهرت بوادره على الشعب الإنكليزي خاصة بعد عودة الحملات الصليبية من الشرق التي أتاحت لأوروبا أفضل الفرص للتعرف على الحضارة الإسلامية ومحاولة الاقتباس منها[٢٥].

يقول "ول ديورانت": أخذ الصليبيون معهم الكثير من أساس الحضارة الإسلامية ودخلت ألف كلمة وكلمة من اللغة العربية إلى اللغات الأوروبية، وانتشرت القصص الشرقية في أوروبا، وأخذوا معهم صناعة الزجاج الملون والبوصلة، والطباعة والبارود. وإن ما عرفه الصليبيون من أن أتباع الدين الإسلامي قد يكونون مثلهم متحضرين كريمين يوثق بهم ويعتمد عليهم. وخلاصة القول: إن ما عرفه الصليبيون من المسلمين قد بعث بلا ريب آفاقاً متسعة للتفكير [٢٦].

وكذا نجد أهمية الدور الذي أسهمت به كل من بلاد الشام وصقلية في تغذية غرب أوروبا بأصول الحضارة العربية، وكذلك الفضل الأكبر يرجع بلا شك إلى عرب أسبانيا في تقديم خلاصة الفكر العربي في العلوم والآداب والفلسفة إلى غرب أوروبا، فضلاً عن تعريف الأوربيين بكثير من تراث اليونان القديم الذي زال من الوجود ولم يبق إلا في التراجم العربية [٢٧].

ثانياً: الترجمة اللاتينية " الكتب الفلسفية ":

إن الترجمة خير وسيلة لربط الثقافات بعضها ببعض، وقد شغل بها العرب نحو ثلاثة قرون "٨-١٠" فنقلوا عن الفارسية والهندية، والسريانية والعبرية، كما نقلوا عن اللاتينية واليونانية، وربطوا أثينا والإسكندرية ببغداد من جانب، كما ربطوا بها جند يسابور وحران من جانب آخر، وشغل بها اللاتين نحو قرنين "١٢-١٣" فنقلوا عن العبرية والعربية، كما نقلوا عن اليونانية، وربطوا بغداد وقرطبة بباريس وأكسفورد حركة شبيهة بحركة الترجمة في الإسلام، وإن كانت أضيق مجالاً وأقل تنوعاً، بدأتا معاً

---

[٢٥] انظر: طه المدور. بين الديانات والحضارات. صـ ١٤٨،١٤٩،١٥٠.

[٢٦] انظر: حافظ عثمان. الإسلام والصراعات الدينية. صـ ١٩٧،١٩٨.

[٢٧] انظر: د/ سعيد عبد الفتاح عاشور. أوروبا العصور الوسطى. جـ٢ ص٤٩٠.

بالعلم ثم انتهتا إلى الفلسفة. ولم يعنيا كثيراً بالناحية الأدبية، فلم يحرص اللاتين على الأخذ من الأدب العربي، كما لم يحرص العرب من قبل على الأخذ من الأدب اليوناني، عولتا في البداية على مترجمين أجانب، ثم اضطلع بالأمر فيما بعد العرب واللاتين أنفسهم.

ولا نزاع في أن الثقافة الإسلامية هي التي دفعت اللاتين إلى الترجمة، وقفوا على بعض ذخائرها، فرغبوا في الاستزادة منها، حاولوا ترجمة القرآن في القرن العاشر، وقام قسطنطين الأفريقي "١٠٨٧" في القرن الحادي عشر بترجمة بعض الكتب الطبية ترجمة عرفت بنقصها ورداءتها.

- ولم تبدأ حركة الترجمة الحقيقية إلا في القرن الثاني عشر فتوسع فيها، ونظمت وسائلها، وركزت في بيئات خاصة، واضطلعت بها جماعات معينة بدئ بالترجمة عن العربية، وعن طريقها اتجهت الأنظار إلى بعض الأصول اليونانية، ولذلك رؤى تكوين جيل يلم باللغات الأجنبية، وأنشئت معاهد لتعليم العربية والعبرية واليونانية، فأسست في طليطلة مدرسة لتعليم العربية والعبرية، وفيها تخرج ريمون مارثان الدومنكاني "ق١٣" الذي كان على اتصال بالقديس توماس الأكويني، وبعد هذا بقليل استطاع ريمون لول "١٣١٦" أن يقرر مبدأ تخصيص كرسي للغات الأجنبية في الجامعات الأوروبية، ولم يتردد اللاتين في أن يعيدوا ترجمة ما ظهر نقصه، وقد يترجم النص الواحد في أكثر من جهة، وبرغم هذا لم تسلم ترجمتهم من أخطاء، فيعزى إلى باحث ما ليس من عمله ويؤدي المعنى أداء فاسداً. ومهما يكن من أمر فإن الترجمات اللاتينية احتفظت لنا بنصوص لم نقف بعد على أصولها العربية، وفيها ما يعين على تحقيق نصوص ساء نسخها، لاسيما وهي ترجع في الغالب إلى أصول أقدم عهداً، وربما كانت بخط المؤلف نفسه [٢٨].

ولقد سبق أن ذكرت أن طليطلة و"بلرمو" أكبر مركزين للترجمة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، وهنا إضافة إلى ما سبق ذكره في طليطلة و"بلرمو" من ترجمة للكتب الفلسفية، فنجد اللاتين اهتموا اهتماماً بالغاً بالعلوم كما صنع العرب من قبل، فترجموا كتباً في الرياضة والفلك، والطب والكيمياء، والنبات والحيوان بل والسحر والتنجيم، وعرفوا كبار علماء الإسلام، أمثال: جابر بن حيان والرازي في الكيمياء، والخوارزمي "٨٤٤" وابن الهيثم في الرياضة والبصريات، والبتاني "٩٢٩"

[٢٨] انظر: د/ إبراهيم بيومي مدكور. في الفلسفة. ضمن أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية ص١٦٥،١٦٦،١٦٨.

والبتروجي "١٠٨٥" في الفلك وابن زهر "١٠٦٢" وعلي ابن رضوان "١٠٦٧" في الطب، عدا الفلاسفة الأطباء.

ويهمني أن أقف قليلاً عند الفلسفة والفلاسفة ليتضح لنا مدى صلة كل واحد منهم بالعالم اللاتيني، ونعرف ما ترجم من كتبه الفلسفية، وقد عرف اللاتين فلاسفة المسلمين كما يلي:

١- الكندي: يظهر أن علمه غلب على فلسفته عندهم، حيث لم يترجم من كتبه الفلسفية إلا أربع رسائل صغيرة هي: ١- في العقل. ٢- في ماهية النوم والرؤيا. ٣- في الجواهر الخمسة. ٤- في البرهان المنطقي، - وقد وصلتنا الرسائل الثلاث الأولى في نصوصها العربية - أما الرسالة الرابعة فلم نقف عليها بعد، وإن وردت في ثبت كتب الكندي، وللرسالتين الأوليين شأن في الفلسفة المدرسية، وخاصة الرسالة الأولى التي تدور حول مشكلة المعرفة، وتتصل برسائل أخرى مشابهة للإسكندر الأفروديسي والفارابي، وابن سينا. وفي بعض المخطوطات اللاتينية مجموع يحوي هذه الرسائل الأربع، ويرمز لقربها وارتباط بعضها ببعض والرؤى والأحلام من الموضوعات الطريفة والهامة في القرون الوسطى لأنها تتصل بالوحي والإلهام، وقد عالجها الفارابي وابن سينا بعد الكندي وبنيا عليها نظرية النبوة التي تعد من النظريات الإسلامية الخالصة، ولألبير الكبير بحث في النوم واليقظة يحذو فيه حذو مفكري الإسلام[٢٩].

٢- الفارابي: نجد صورة الفارابي لدى اللاتين كانت أوضح وإن لم يترجم من كتبه الفلسفية إلا اثنان: أولهما إحصاء العلوم الذي ترجم مرتين في القرن الثاني عشر على أيدي جند سالينوس وجيرار الكريموني، وكان له أثره في محاولات تصنيف العلوم في القرون الوسطى، وخاصة عند أحد مترجميه جند سالينوس، ولم يحاول الفارابي في الإحصاء وضع نظرية في تقسيم العلوم كما صنع أرسطو في قسمته السداسية للعلوم النظرية والعملية، وإنما شاء فقط أن يحصر العلوم المعروفة لعهده، وتعرف بها، وما أشبهه في ذلك بأسبير "١٨٣٦" الذي جاء بعده بنحو تسعة قرون، وحصر العلوم المعاصرة له في ١٢٨ علماً. والكتاب الثاني "مقالة في العقل" ومشكلة العقل أو مشكلة المعرفة إحدى مشاكل الفلسفة المسيحية الكبرى التي أسهم فيها الفارابي وابن سينا بنصيب كبير. ومما يلفت النظر أن المدرسيين لم يتجهوا إلى منطق الفارابي مع أنه المعلم الثاني ومنطقي العرب الأول، وكأنهم اكتفوا بمنطق أرسطو بعد أن اكتمل لديهم، ولا أدل على هذا من أنهم لم يتموا ترجمة منطق الشفاء بعد أن بدئوا فيه وعرفوه. ومع

[٢٩] انظر: د/ إبراهيم بيومي مدكور. في الفلسفة. ضمن أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية ص١٦٨.

هذا يمكننا أن نقرر أن كبار مفكري القرن الثالث عشر من المسيحيين عرفوا الفارابي. وكثيراً ما أشار اليه ألبير الكبير وروجر بيكون، وكأنهم أدركوا تلاقى آرائهم مع آراء تلميذه ابن سينا، وطغى التلميذ على الإستاذ هنا كما طغى عليه عند العرب، ولقد تأثر بالفارابي " روجر بيكون " حينما قال: إن العقل الفعال ليس جزءاً من النفس الإنسانية، ولكنه مفارق لها تماماً ومختلف عنها في مادته اختلافاً جوهرياً "Ueberw. II 470" وكذلك يقتفي "ألبرت الكبير ت ١٢٨٠م" أثره وأثر ابن سينا في فهم تعالم أرسطو وعرضها، وتأثر به رونالد القرموني، ودومينيقوس غنديسالفي في تبويب الفلسفة وغيرها [٣٠].

٣- ابن سينا: لقد اهتم اللاتين بابن سينا اهتماماً بالغاً فأخبروا بموسوعته الفلسفية وأخذوا يترجمونها وقضوا في ذلك زمناً، وقد ترجموها على مرحلتين: مرحلة مبكرة في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، ومرحلة لاحقة بعدها بنحو مائة سنة فترجموا أولاً من قسم منطق الشفاء "المدخل" وفصلاً من "التحاليل الثانية"، ومن قسم الطبيعيات الكتاب الأول، والثاني والسادس وهو "كتاب النفس" المعروف، وقسم "الإلهيات" بأسرها. ثم أتموا في المرحلة الثانية بقية قسم الطبيعيات، ولا ندري لماذا لم يعرضوا لقسم الرياضيات مع حرصهم على هذه الناحية، ولعله لم يقع في أيديهم وقد ترجموا أيضاً لابن سينا شذرات من النجاة والإشارات وبعض الرسائل الفلسفية الصغرى.

ولما ترجمت أجزاء الشفاء تلقفتها الأيدي في مختلف العواصم الأوروبية ونسخت منها عشرات المخطوطات، وكانت تجارة الكتب رائجة "رواجاً كبيراً في القرن الثالث عشر". وما ترجم من كتاب الشفاء كاف في إعطاء صورة صادقة عن فلسفة ابن سينا، وكانت له آثار عميقة في الحركة الفكرية اللاتينية، وفي طبيعياته آراء ونظريات أسهمت في النهضة العلمية الحديثة. فأنكر ابن سينا دعوى الكيميائيين السائدة من إمكان تحويل المعادن الدنيئة إلى معادن نفيسة، وكان لرأيه هذا وزن عند ألبير الكبير وروجر بيكون. وقال مع القدماء بكروية الأرض، فمهد لكوبرنيق وجاليليو. وشرح تكوين الجبال والصخور شرحاً اعتمدت عليه نظرية البراكين في القرن السابع عشر. وأخذ بالملاحظة والتجربة في دراساته الطبيعية أو الطبية، ووضع حجراً في بناء المنهج التجريبي الحديث. وغذى كتاب المدخل مشكلة الكليات التي كان لها شأن في القرون الوسطى المسيحية. وعالج كتاب النفس أموراً كانت الفلسفة المدرسية في أمس الحاجة إليها، فعرض للنفس في حقيقتها وخلودها، وشرح جانبي المعرفة الحسي والإشراقي. وبحث

[٣٠] انظر: عمر فروخ. أثر الفلسفة الإسلامية في الفلسفة الأوروبية. صـ ٨. و انظر: د/ إبراهيم بيومي مدكور. في الفلسفة. ضمن أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية صـ ١٦٨-١٧٠.

كتاب الإلهيات نشأة العالم، وطبيعة الإله، وصلته بمخلوقاته. وحاول التوفيق بين العقل والنقل، فلمس أدق الموضوعات التي شغلت "كلية أصول الدين" بباريس زمناً[٣١].

- فابن سينا أكبر فلاسفة المسلمين أثراً في الفلسفة الأوروبية بعد ابن رشد، وكان أثره في الطب أشد من أثره في الفلسفة على شدة أثره فيها. وأكثر الذين تأثروا بالفارابي تأثروا بابن سينا أيضاً، وقد تأثر به إسكندر الهالي الإنكليزي "ت ١٢٤٥م" وتوماس اليوركي الإنكليزي "١٢٦٠م" الذي كتب في الإلهيات حسب رأي أرسطو متأثراً بابن سينا قبل أن يتم " ألبرت الكبير " شرح إلهيات أرسطو وقبل أن يبدأ "القديس توما" بشرحها " II, 381,397" وأدرك " روجر بيكون " أن أرسطو أخطأ في أمور معلومة فخلع الثقة به عنه، وكثيراً ما اعتمد في توضيح آراء أرسطو على ابن سينا.

ولقد أنجب الغرب في العصور الوسطى فيلسوفين كلاميين كبيرين: " ألبرت الكبير ١١٩٣-١٢٨٠م" والقديس " توما الأكويني ١٢١٤-١٢٩٤م" وكلاهما تأثر بابن سينا كثيراً فـ " ألبرت الكبير " قلده في التأليف فجمع علوم أرسطو في مجموع واحد كما فعل العرب وخصوصاً ابن سينا. ولما جاء " القديس توما " بخمسة أدلة على وجود الله سلك فيها في تاريخ الفلسفة مسلك أرسطو، اعتمد على أسلوب ابن سينا في سياقه آراء أرسطو، وقلد " القديس توما " ابن سينا في القول بتعدد أشخاص الملائكة وأنهم مفارقون للمادة، وتأثر " متى الأكوسبارطي " الذي أصبح كردينالاً عام ١٢٩١ وتوفى ١٣٠٢م بنظرية الفيض عند ابن سينا. وكذلك " ديترش الفريبورغي ت بعد ١٣١٠" الذي رأى أن الخلق لا يمكن أن يكون عمل غير الله، وأن نظرية الفيض لا تخالف خلق العالم ولكنها تشملها ما دامت الأسباب الثانية لا تعمل إلا بأثر من الأسباب الأولى، وكذلك وافقه " ديترش " بأن العقل الفعال هو "المبدأ السببي لمادة النفس، وأن صلته بالنفس كصلة القلب بالجسم الحيواني" وخالف في ذلك القديس توما[٣٢].

٤- الغزالي: إن مقاصد الفلاسفة للغزالي من الكتب التي ترجمت في عهد مبكر على أيدي جند سالينوس، وهو عرض واضح لفلسفة ابن سينا، شاء الغزالي أن يمهد به لحملته على الفلاسفة كما نص على ذلك في مقدمته. ويظهر أن هذه المقدمة وإن كانت قد ترجمت إلى اللاتينية، لم تقع في أيدي كثيرين فعزوا إلى الغزالي كل ما ورد في هذا الكتاب، وعدوه واحداً من المشائين العرب، ولم يفت هذا الخلط روجر بيكون، وأشار إليه صراحة. وعلى كل حال أعان كتاب المقاصد اللاتين على فهم الفلسفة الإسلامية،

---

(٣١) انظر: د/ إبراهيم بيومي مدكور. في الفلسفة. ضمن أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية ص١٧١.

(٣٢) انظر: عمر فروخ. أثر الفلسفة الإسلامية في الفلسفة الأوربية. ص٨،٩.

وعرضها أمامهم عرضاً واضحاً [٣٣]، وتأثر به فلاسفة اليهود والنصارى فاقتبس منه "أبو الفرج بن العبري ت ١٢٨٦م" في "كتاب الحمامة" في الأخلاق، وتأثر به " بهيا بن يوسف بن باكودا " في "كتاب الهداية إلى فرائض القلوب" الذي ألفه بالعربية ١٠٥٠م واعتمد عليه " ألبرت الكبير " و " القديس توما " وبعض متأخري الفلاسفة في العصور الوسطى، ويتجلى أثر الغزالي فيما يلي:

١- نفي السببية: يرى الغزالي أن الأمور تتم بإرادة الله لها لا بالأسباب الظاهرة لنا وليس بمستغرب أن يتبعه رجال الكنيسة في ذلك، ولقد شابهه أيضاً " دافيد هيوم ت ١٨٨٦" حينما نسب العلاقة الظاهرة بين السبب والمسبب إلى التذكر لا إلى الحقيقة، وقال: إن تعاقب أمرين لا يوجب أن يكون أحدهما سبباً للآخر، إلا أن " الغزالي " يرد العلة الحقيقية إلى الله، بينما " هيوم " يبحث فيها بحثاً نفسانياً ويردها إلى التذكر: أننا إذا سمعنا صوتاً فحكمنا بأن صاحبه إنسان فلاناً نذكر أننا سمعنا من إنسان مثل هذا الصوت لا لأن بين الصوت وبين صاحبه صلة يدركها العقل.

٢- الشك: ليس القول بالشك في "نظرية المعرفة" جديداً عند الغزالي، فلقد سبقه إليه القديس أوغسطين "ت ٤٣٠م" ورأى أن فينا حواس ظاهرة ثم حواس باطنة فوقها، ثم عقلاً فوق هذه جميعها يحكم في محسوساتها، ولكن العقل الإنساني يجد شيئاً أسمى منه، إذ أنه هو متبدل يدرك تارة ويقصر أخرى، ويسعى حيناً إلى المعرفة على أن "الحقيقة نفسها غير متبدلة، فإذا رأيت بطبيعتك متبدلة فارق بنفسك إلى المصدر الخالد لنور العقل" أما مصدر الحقائق كلها فهو الحقيقة التي لا تتبدل: الله، ولا يمكن أن تتخيل حقيقة أسمى منها لأنها تشمل جميع الوجود الحقيقي. إلا أن الغزالي يفوق أوغسطين في أن أوغسطين يشك في العقل ثم "يحاول أن يعرف بالعقل" بينما الغزالي يشك في العقل ثم " يوقف بأنه يعرف بنور يقذفه الله في القلب" والعجيب أن " ديكارت ت ١٦٥٠م" غفل عن الفرق الدقيق الذي لحظه الغزالي في نظرية الشك [٣٤].

٥- ابن باجة: لقد عرف اللاتين "ابن باجة" أول فلاسفة الأندلس الكبار، وإن لم يقفوا عنده طويلاً، فلم يعرضوا لتعليقاته على بعض كتب أرسطو الطبيعية وإنما استوقفتهم رسالته " في الاتصال " التي أشار إليها " ألبير الكبير "، وهي بدورها تنصب على مشكلة المعرفة التي شغلت مفكري القرون الوسطى عامة، وكذلك أثر في التفكير الأوروبي من طريق " موسى النربوني " الذي نقل "تدبير المتوحد" إلى العبرية، وأثر

---

[٣٣] أما كتاب تهافت الفلاسفة الذي يشتمل على أعنف حملة على الفلسفة عرفت في التاريخ فإنه لم يترجم إلى اللاتينية إلا في آخر القرن الخامس عشر.

[٣٤] انظر: المرجع السابق. صـ ١٠،١١.

في " ألبرت الكبير Sarton II 183, Miele 188" وفي " بوتيوس داسيا " الذي قال بأن الإنسان يبلغ السعادة بالوصول إلى الحقائق العلمية وسكت عما وراء ذلك[٣٥].

٦- ابن طفيل: ولم يكن حظ ابن طفيل بأعظم من حظ " ابن باجة "، فقد عرفه اللاتين معرفة عابرة برغم معاصرته لحركة الترجمة في طليطلة وقربه منها، ولم يعنوا برسالة " حي بن يقظان " التي تعد إحدى روائع القصص الفلسفي ولم تترجم إلى اللاتينية إلا في القرن السابع عشر "١٦٧١" فتأثر بها بلتاسار غراتسيان في قصة "أندرفيو١٦٥٠م" وروسو في كتابه "أمير" "II 313, 722" وسبينوزا "ت ١٦٧٧م" ونالت إعجاب " ليبنتز ت ١٧١٦" Sarion, II 286 En.Is.I 425 وظهر أثرها في قصة " روبنصن كروز و Harpe 285, Sarton 286 " المؤلفة ١٧١٩م، وكان من أثرها أن حاول " موسى بن ميمون " التوفيق بين الفلسفة والتوراة، وإن حاول فلاسفة العصور الوسطى التوفيق بين الفلسفة والمذهب الكاثوليكي. أما آراء " ابن طفيل " في النشوء الطبيعي والبيئة الطبيعية وفي نظرية المعرفة والعلم التجريبي وفي منطق البحث والاختصاص بفن واحد من فنون الفلسفة فقد أثرت في اتجاه التفكير الأوروبي الحديث[٣٦].

٧- ابن رشد: يعتبر "ابن رشد" أكبر فلاسفة الإسلام حظاً من الترجمة اللاتينية، حيث ترجمت شروحه على أرسطو في صورها المختلفة من صغيرة وكبيرة وتلخيصات، ويبلغ عددها نحو ٣٨ شرحاً ترجمت مرتين: أولاهما في القرن الثالث عشر، وعول فيها على الأصول العربية ما أمكن. والثانية في القرن السادس عشر، وقامت كلها على العبرية خاصة، وترجمت له غير الشروح كتب أخرى أهمها تهافت التهافت الذي ترجم إلى اللاتينية في القرن الرابع عشر عن أصل عربي مرة وعبري مرة أخرى.

ويرى البعض أن العناية بابن رشد خاصة لارتباط " ابن رشد " بأرسطو، وإذا كان بعض دارسيه قد طلبوه لذاته فإن فريقاً منهم كان يرجو أن يفهم في ضوئه الفيلسوف اليوناني، وكم خلطوا آراءهما وعز عليهم التفرقة بينهما، وإعادة ترجمة " ابن رشد " في القرن السادس عشر لم تكن تصوب اليه في الغالب بقدر ما كانت تهدف إلى إلقاء ضوء على أرسطو.

يقول الدكتور " إبراهيم بيومي مدكور ": ومما يؤسف له أنا لم نقف على كثير من شروح " ابن رشد " في أصولها العربية ومصدرنا الوحيد فيها حتى الآن ترجمتها

---

[٣٥] انظر: عمر فروخ. أثر الفلسفة الإسلامية في الفلسفة الأوروبية. صـ ١١.

[٣٦] انظر: المرجع السابق. صـ ١١،١٢.

اللاتينية أو العبرية، وفي هذه الترجمات ما أعان على نشر المذهب الرشدي في الغرب وهيأ مصادر وفيرة لدرسه وبحثه، وهو هنا دون نزاع أعرف منه في الشرق، وقد نشرت شروحه اللاتينية غير مرة كاملة أو مجزأة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وأكمل نشر لها هو ذلك الذي يحمل اسم دار النشر الكبرى في القرن السادس عشر "الجونث" وفي المكتبات الأوروبية الكبيرة بقايا وفيرة من هذه الشروح، وبخاصة "دار الكتب الأهلية" بباريس، وفي هذا ما يبين مدى الإقبال على ابن رشد، ويدل على كثرة الدارسين له [٣٧].

وفي ضوء ما سبق يمكن القول أن اللاتين عرفوا المشائين العرب عامة، وترجموا قدراً من كتبهم، وفيما ترجموه ما يعطي صورة صادقة في جملتها عن الفلسفة الإسلامية، ولكن ابن سينا وابن رشد في نظرهم هما الممثلان الحقيقيان لهذه الفلسفة، قرئوا لهما في عناية ودرسوهما دراسة عميقة، وأخذوا عنهما ما أخذوا، ورفضوا ما رفضوا، وكان لهما تلاميذ وأتباع، وخصوم ومعارضون، فأثرا في الفلسفة المسيحية تأثيراً كبيراً، وأحدثا فيها تيارات فكرية واضحة، وامتد أثرهما إلى عصر النهضة والتاريخ الحديث.

الخلاصة:

أن ما أخذه الغرب من الإسلام وعلوم المسلمين من معارف وعلوم وأفكار جديدة أثناء احتكاكهم بهم في الأندلس وصقلية والحروب الصليبية... وغيرها هي التي مهدت لثورات الإصلاح الديني التي اجتاحت أوروبا والتي كان أساسها الاعتماد على العقل والمنطق في تفهم الدين مع حرية البحث الفلسفي والديني بدون قيود ميتافيزيقية.

ولهذه الأسباب توجد علاقة وطيدة بين فلسفة التنوير والإسلام، تاريخية وفكرية. ويمكن القول بلا أدنى مبالغة أن الإسلام كان سبباً من أسباب نشأة فلسفة التنوير وأحد روافدها التاريخية، إذ تكثر الإشارة من فلاسفة التنوير إلى الإسلام باعتباره نموذج الدين المستنير الخالي من العقائد والطقوس والشعائر والمؤسسات الدينية والداعي إلى استغلال العقل وحرية الإرادة والمدافع عن المساواة والعدالة الاجتماعية. ويتضح ذلك أكثر إذا ما قارنا الفكر الاعتزالي بفلسفة التنوير ورأينا الشبه بينهما من دعوة إلى التنزيه وإثبات لحرية الإنسان ودعوة إلى إعمال عقله، وتأكيد لمسئوليته الفردية [٣٨].

---

[٣٧] انظر: د/إبراهيم بيومي مدكور. في الفلسفة. ضمن أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية. ص١٧٣،١٧٤.

[٣٨] انظر:حافظ عثمان. الإسلام والصراعات الدينية. صـ ١٩٨.

٢ ـ دور الإسلام في إنقاذ همة الغربيين:

إن النهضة الفكرية في الشرق الإسلامي منذ القرن الثامن الميلادي، بينما كانت أوروبا تعيش في ظلام حالك قبل صلتها بالشرق الإسلامي، فلما وقعت تلك الصلة لا بد أن تكون أخبارها قد وصلت إليها فتكون هي الموقظة لها حيث أخذت روح العلم والمعرفة والتبصر بقيم الحياة تدب في أوصال أوروبا التي كانت قد جفت عروقها، وضعف نبضها، وتبلدت فيها المشاعر والأحاسيس [٣٩].

وقد أقر بهذا الكثير من علماء الغرب الذين رأوا أن العلماء المسلمين في الشرق قد حملوا إلى الغرب علوم المتقدمين، مصححةً منقحةً، ومضافاً إليها من خبراتهم العلمية، لاسيما وأنهم أول من قال بالتجربة العلمية والخبرتين: الحسية، والعقلية، فأخرجوا أهل الغرب خلال عصورهم الوسطى المظلمة من الظلام إلى النور، ومن الجهل إلى العلم، ومن الهمجية إلى المدنية، ومن الوحشية إلى الحضارة المشرقة [٤٠].

حيث اقتبست أوروبا كثيراً من العلوم والفنون التي ازدهرت أو بدأت تباشيرها على أيدي العلماء والمفكرين والفلاسفة الإسلاميين، وما ثارت أوروبا على الأوضاع الكنسية والإقطاعية فيها إلا بعد أن عرفت حلاوة الحرية والمساواة والعدل والمعرفة التي كانت تظل الشرق الإسلامي بفضل الإسلام ومبادئه التي تآخى فيها الدين والعلم والعقل، واتسقت مع الفطرة الإنسانية السليمة أيما اتساق. فمبادئ الإسلام وآثاره العملية في الشرق الإسلامي كانت واحداً من أبرز الأسباب الإيجابية في قيام النهضة الأوروبية وامتدادها إلى العصر الحديث[٤١]. وإذاً من أهم أسباب النهضة الأوروبية الروح الدافعة التي بثها الإسلام وحضارته في أرجاء العالم، فأخذت تسري في أوصال أوروبا مجددة حياته وقواه.

هذه الروح هي التي مهدت للأوربيين سبل المجد والقوة وكونت منهم دولاً عتيدة سواء عن طريق التثقف بالعلوم الإسلامية أو باقتباس الفنون والأعمال والمخترعات التي أوجدتها الحضارة العربية في الأندلس ومصر والعراق.

فاغترفوا من معين خيرات الأندلس وكذلك جنى الأوربيون الفوائد العظيمة من ديار العرب والإسلام بعد الحروب الصليبية. تساوى الضرر والنفع لدى الأوربيين من

---

[٣٩] انظر: د /عبد العظيم المطعني. الإسلام في مواجهة الأيديولجيات المعاصرة. صـ ١١٩.

[٤٠] انظر: الأستاذ: محمود أبو الفيض المنوفي. الإسلام والحضارة العالمية. الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية. القاهرة١٩٧٣. صـ ٢١٨.

[٤١] انظر: د/عبد العظيم المطعني. الإسلام في مواجهة الأيديولجيات المعاصرة. صـ ١١٩،١٢٠.

جراء حملاتهم الصليبية العديدة على ديار المسلمين، وما كانوا يحلمون أو يفكرون بوقوعهم على تلك الكنوز والغنائم الجزيلة التي أوصلتهم فيما بعد إلى أعلى ذروات التمدن وأسمى مرافق القوة[٤٢].

لقد ظفروا بما لم تحلم به مداركهم المنحطة وطبائعهم الهمجية: رأوا لواء العدالة يخيم فوق ربوع الشرق فلا ظالم ولا مظلوم، ولا سلطان إلا للحق والشرع. ورأوا معاهد العلم والثقافة العامة قد بلغت أعلى ذروات النضوج والتكامل. ورأوا الشيء الكثير من مجالي التمدن الرفيع والعمران والثراء والرقي. فأدهشهم ذلك وحيّر عقولهم، ولاسيما عندما قابلوه بما هم عليه من جهل وفقر وفوضى في كل شؤونهم الاجتماعية والعلمية. فأخذ المفكرون - وقلما وجد في ذلك الحين مفكر في أوروبا - يعملون على تدوين واقتباس كل ما وسعته قرائحهم واهتضمته عقولهم من آثار خلد بها العرب حضارتهم وانتظمت معها شؤونهم العمرانية والزراعية والعلمية والفنية والتشريعية.

وهناك توصلوا إلى تقليده في بلادهم على مر العصور تقليداً فذاً أدى لرفعهم فيما بعد من هواة الجهل والضلالة إلى أسمى مراتب التكامل والمجد العظيمين.

١- درسوا الطرق المتبعة لتأسيس المحاكم واقتبسوا الشيء الكثير من الأحكام الحقوقية والجزائية بالإضافة إلى ما كانوا مصطلحين عليه من مخلفات التشريع الروماني.

وقد نالت فيما بعد بلدة "بال" الألمانية شرف تأسيس أول محكمة قانونية على الطراز العربي الإسلامي، وصار أرباب الحاجات يحجون إليها من كل مكان ليقاضي المظلوم ظالمه ويستنجد المغدور بعدل هذه المحكمة لاستخلاص حقه من المختلس أو المعتدي القوي، وكتب على بابها باللاتينية -Solo Loiyum- أي: " الحق فقط " وكانت تتكون من حاكم وعضو معاون له ومدون للجلسات، ثم عممت هذه المحاكم بعد ذلك في عدة بلدان أوروبية وخصصت إحداها لمحاكمة قرصان البحار في "طولون".

٢- تعلموا أساليب تأسيس مرافق الدولة بدواوينها ومجالسها وأصول جباية الأموال وطرح الضرائب.

وبدأ المفكرون من رجال هذه الحملات يعملون بعد رجوعهم إلى بلادهم على تقليد الدول الإسلامية فيما اقتبسوه كتشكيلات الدواوين والمجالس وبقية المصالح التي يتكون منها جهاز الحكومة الفعال، كما عملوا على تحسين أصول جباية الأموال وطرح الضرائب وتنظيم الميزانيات وإحصاء الداخل والخارج وإيجاد التوازن بينهما، وكانت

[٤٢] انظر: طه المدور. بين الديانات والحضارات. صـ ١٤٧.

مملكة "بافاريا" تبعث بالخبراء إلى كل دولة ترغب في إدخال هذه التجددات المدنية والتوجيهية على تشكيلاتها الحكومية [٤٣].

٣ - تأسيس دور العلم ونشر لوائه في المحيط الأوروبي المفعم بالتردي والجهل والتعصب الديني والحروب الناتجة عن هذه النعرات المذهبية والإقطاعية والعرقية. فتأسس على يد الداعية الإنكليزي "ردولف جوني" أول معهد علمي في لندره نفسها، وأدخل إليه أبناء الأمراء والأعيان والمتمولين، وأخذ في تدريس العلوم التي اقتبسها المتتبعون الإنكليز من الشرق بقدر ما وسعت مواهبهم الضعيفة فقسموا الصفوف على الترتيب الذي تعلموه في المعاهد الإسلامية هم وأسلافهم عندما كانوا في مصر والعراق أي: خلال احتكاكهم بالمسلمين في الحملات الصليبية التي قاموا بها طيلة أكثر من قرنين.

٤ - تأسيس دواوين الحكومات على الطريقة العربية. فكان قد سبق العمل به في مقاطعات فرنسا الجنوبية المتاخمة لحدود الأندلس، حيث جعل لكل مصلحة ديوان له رئيس ومسجل، بعد أن كانت تدار كلها جملة واحدة من قبل هيئة ضامنة أي متعهدة أو ملتزمة تأخذ على عاتقها الإشراف على هذه الأعمال! فتحصل مواردها وتدفع لرئيس البلدة ويدعى " Mer " جعلاً سنوياً قد اتفق عليه عند توقيع العهد بين الجانبين.

وهكذا تدرجت تشكيلات الدواوين إلى التنظيم رويداً رويداً حتى أصبحت تشبه ما كان مصطلحاً عليه لدى الحكومات الإسلامية. ثم انتقلت هذه الأساليب الإدارية إلى بقية البلدان الأوروبية وأخذ يطرأ عليها التحسين والترتيب إلى أن اتخذت شكل الدوائر التي نشاهدها اليوم في بعض البلدان بحالتها الابتدائية كاليمن والحبشة مثلاً [٤٤].

- وأيقظت هذه الخطوة في بعض الأقطاع الأوروبية روح التفكير بالعناصر الواعية لتجديد تكوين الصلة الناظمة للروابط التشريعية التي تربط الشعوب بحكوماتها، فراحوا يقلدون العرب في تأسيس المجالس الشورية المحدودة الصلاحيات والقاصرة على إبداء المشورة للقوة الإجرائية وإلفات نظرها إلى الحاجات الملحة المتعلقة بشؤونهم الحيوية وتواضعوا على اقتباس الأنظمة المعمول بها في هذا الشأن بالمقاطعات الأندلسية الشمالية القريبة من الحدود الأوروبية، فخضعت لهم بعض عوامل التنظيم من وراء هذا التقليد الحسن، وكان يسعفهم على المضي في إدخال التحسن عليها عودة أبنائهم الطلاب الذين يكونون قد أتموا دراستهم في معاهد الأندلس، فيعملون على مواصلة التجديد في

---

[٤٣] انظر: طه المدور. بين الديانات والحضارات. صـ ١٤٧،١٤٨.

[٤٤] انظر: طه المدور. بين الديانات والحضارات. ص١٤٨،١٥٠.

جميع النواحي سواء في دوائر الحكومات أو مرافق البلاد الصناعية والاجتماعية والزراعية [٤٥].

٥ ـ اقتبسوا علم الكيمياء العضوية وصناعة الأجبان والألبان وكلها كانت مجهولة لديهم ثم أتقنوا تكوين عناصر الغذاء.

٦ ـ اقتبسوا الدباغة الفنية على مختلف أنواعها. حيث عمل الأوربيون إلى وجوب تأسيس معامل للدباغة في بلادهم لتوفير الأموال الكثيرة التي يخصصونها لشراء الجلود المدبوغة من مصر وسوريا وبلاد المغرب العربي، فسافر بادئ ذي بدء أحد أثرياء "البندقية" وكان والده -على ما روى العرف الطيب- عربياً وأمه إيطالية ويدعى شريدو "Chrido" إلى مصر وأخذ يعمل على استئجار بعض الخبراء بفن الدباغة ويغريهم بالأجور الباهظة. وتمكن في النتيجة من استصحاب بعض المتخصصين إلى بلده "البندقية" وأسس مدبغة كبرى. وكان الأوربيون يستعملون الجلود المكشوطة والمزخرفة بالألوان الابتدائية التي تزول عندما يلحق بها الماء، ومن هنالك يبدو أن هذه الصناعة العربية أخذت تروج وتنتشر في كل بلد أوروبية تقريباً. وتعلموا صناعة سكب قطع الفسيفساء ذات الألوان والنقوش الجميلة الثابتة وعمل الصباغات والحبر الملون والحبر الخفي، وكشفوا عن الطرق الكيميائية التي يستعملها العرب لصنع البارود الأبيض.

وأوفدت إنجلترا بعض الصاغة إلى القاهرة عام ١٦٤٠ لصنع تاج الملكة "حنا فيبورج" فعادوا به، وكان أجمل تاج وضع على رؤوس الملوك والملكات، وتسنى بهذه المناسبة لهؤلاء الموفدين أن يتقنوا فنون الصياغة العربية وبهارجها وصناعة المصوغات والحلي الخاصة بالزينة النسائية وسواها [٤٦].

- وغير ذلك من علوم وصناعات وفنون اقتبسها الغرب من الإسلام والمسلمين مما كان سبباً في إنقاذ همة الغربيين.

- ولهذا يقول العقاد: إن ما نأخذه من أوروبا بعد ازدهار نهضتها الحديثة إنما هو من باب سداد الديون التي للعرب والمسلمين عليها بما نهلته من المعارف والعلوم الإسلامية قبل أن تعرف أوروبا ما تعرفه الآن [٤٧].

---

[٤٥] انظر: طه المدور. بين الديانات والحضارات. صـ ١٥٠.

[٤٦] انظر: طه المدور. بين الديانات والحضارات. صـ ١٥٢.

[٤٧] انظر: د/ عبد العظيم المطعني. الإسلام في مواجهة الأيديولجيات المعاصرة. صـ ١٢٠.

٣ ـ شهادة بعض المفكرين والمنصفين من الغرب على دور الإسلام والمسلمين في إنقاذ همة الغربيين.

سأذكر شهادة أهم بعض المفكرين والمنصفين من الغرب على دور الإسلام والمسلمين في إنقاذ همة الغربيين:

١- بريفولت:

قال الأستاذ بريفولت الإنجليزي في كتابه "بناء الإنسانية": في القرن التاسع تعلم كثير من المسيحيين عند علماء الإسلام وقال: إن رئيس دير كلوتي يأسف على أنه رأى في أثناء إقامته بالأندلس الطلبة من فرنسا وألمانيا وإنجلترا يأتون أفواجاً أفواجاً، إلى المراكز العلمية العربية، وقال: فالعلم هبة عظيمة الشأن جادت بها الحضارة العربية على العالم الحاضر.

"ولم يكن فضل الإسلام على أوروبا من ناحية العلم فقط، بل كان له الفضل في نهضتها المدنية. قال الأستاذ بريفولت في الكتاب المذكور: لم تكن إيطالياً مهداً لحياة أوروبا الجديدة، بل إسبانيا "الأندلس" لأن أوروبا كانت بلغت أشد أعماق الجهل والفساد ظلمة في حين العالم العربي -بغداد والقاهرة، وقرطبة، وطليطلة- كان مركز الحضارة والنشاط العقلي، ومن ثم ظهرت الحياة الجديدة التي نمت في شكل ارتقاء إنساني جديد.

ويقول أيضاً: لقد كان العلم أهم ما جاءت به الحضارة العربية على العالم الحديث ولم يكن العلم وحده هو الذي أعاد إلى أوروبا الحياة، بل هناك مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية، وليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوربي إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة، وإن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة، بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية بأكثر من هذا، إنه يدين لها بوجود نفسه [٤٨].

٢- رينيه جيمو " الشيخ عبد الواحد يحي ":

لقد كتب الشيخ عبد الواحد مقالاً مستفيضاً بعنوان "أثر الثقافة الإسلامية في الغرب" بين فيه فضل الثقافة الإسلامية على أوروبا.

يقول: إن كثيراً من الغربيين لم يدركوا قيمة ما اقتبسوه من الثقافة الإسلامية أو يفقهوا حقيقة ما أخذوه عن الحضارة العربية في القرون الماضية، بل ربما لم يدركوا منهما شيئاً مطلقاً، وذلك لأن الحقائق التي تلقى إليهم حقائق مشوهة، حظها من الصحة

[٤٨] انظر: د/ أحمد رمضان . الفلسفة الحديثة عرض ونقد. صـ ٤١.

قليل، فإنها تبالغ كل المبالغة في الحط من شأن الثقافة الإسلامية والتقليل من قدر المدنية العربية، كلما أتاحت الظروف لأصحابها ذلك.

ويلاحظ أن دراسة التاريخ في المعاهد الغربية لا توضح هذا التأثير، بل إن الحقائق تناولتها يد التحوير والتحريف قصداً في كثير من الحوادث عظيمة الشأن جليلة الخطر.

مثال ذلك: ما هو شائع معروف من أن إسبانيا ظلت تحت الحكم الإسلامي عدة قرون، على حين لا يذكر التاريخ الغربي قط:أن صقلية والجزء الجنوبي الحالي لفرنسا كانا تحت الحكم الإسلامي أيضاً، وربما عزا البعض هذا الإهمال من المؤرخين إلى تعصبهم الديني [٤٩].

٣- جورج سارتون:

يقول "جورج سارتون" في كتابة "تاريخ العلم": المسلمون عباقرة الشرق، في القرون الوسطى، لهم مأثرة عظمى على الإنسانية، يتمثل في أنهم تولوا كتابة أعظم المؤلفات والدراسات قيمة وأكثرها أصالة وعمقاً مستخدمين في ذلك لغتهم العربية التي كانت بلا مراء لغة العلم للجنس البشري، في الفترة الواقعة بين منتصف القرن الثامن الميلادي حتى نهاية القرن الحادي عشر، لدرجة أنه كان يتحتم على الشخص الذي كان يريد الإلمام بثقافة عصره، وبأحدث ما يجري من علوم، أن يتعلم اللغة العربية [٥٠].

٤- غريسيب:

يقول الدكتور "غريسيب" مدير جامعة برلين في حفل أقامه الطلاب المسلمون بمناسبة الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف: أيها الطلاب المسلمون، والآن قد انعكس الأمر، فنحن الأوربيين يجب أن نؤدي ما علينا تجاهكم، فما هذه العلوم إلا امتداداً لعلوم آبائكم، وشرحاً لمعارفهم ونظرياتهم، فلا تنسوا أيها الطلبة تاريخكم وعليكم بالعمل المتواصل لتعيدوا مجدكم الغابر، طالما أن كتابكم المقدس عنوان نهضتكم، ما زال موجوداً بينكم وتعاليم نبيكم محفوظة عندكم، فارجعوا إلى الماضي لتؤسسوا للمستقبل، ففي قرآنكم علم وثقافة، ونور ومعرفة، وسلام عليكم يا طلابنا إنا كنا في الماضي طلابكم [٥١].

٤- إيتين دينيه " ناصر الدين ":

---

[٤٩] انظر: د/ عبد الحليم محمود. أوربا والإسلام. ص٧٦،٧٧.

[٥٠] انظر: جورج سارتون. تاريخ العلم. الكتاب الأول. ص٢٢،٢٣.

[٥١] انظر: أحمد علي الملا. أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية. صـ ١٤٣.

يقول "إيتين دينيه" المعروف باسم "ناصر الدين" بعد إسلامه عام ١٩٢٧م في الجزائر، حينما استفتاه البعض عن أمر الشرق والغرب: إن الغرب يخطئ النظر إلى الشرق، مع أن للشرق على الغرب أفضالاً متأصلة في مدنيته، متغلغلة في حياته، ذلك من أثر الدينيات التي هو مدين فيها للشرق، ومن أثر المعاملات والاقتصاديات التي منشؤها اليهودية الشرقية، ومن أثر الحياة الشريفة والهمة القعساء، التي منشؤها أنظمة الفروسية العربية، ومن أثر علم البحار وعلم السماء، وعلم الأبدان وعلم الكيمياء التي ابتدعت أصولها العقول الشرقية.

ويقول: "إن الشرق لم يضمر للغرب الإساءة، وإن الغرب يخطئ إذ يظن أن الشرق لا يستحق العناية، مع أن الشرق قد عرف كل دخائل الغرب وأنه مع ذلك لا يحمل له إلا السلامة" (٥٢).

٥- روبير بريفو:

يقول "روبير بريفو" في كتابه "الشعراء التروبادور": كانت أوروبا في القرنين الحادي عشر والقرن الثاني عشر تتجه إلى العرب، باحثة عما تجد عندهم من صناعات وعلوم، ومن فنون خاصة بالملاحة كانت السبب في تطورها، وتبدل حالها، وكانت أوروبا شغوفة بأن تنقب عن كشوف العرب في علوم الرياضة، والفلك، والطب، والكيمياء، تبحث عندهم عن آثار ذلك التقدم الباهر الذي مكن "خرستوف كولمبس" إلى كشوفه. وقد امتاز العرب في علوم الرياضة، وخصوصاً في الجبر والتقويم واللوغارتم.

ثم يقول الكاتب نفسه: ألا يجدر بنا معشر الأوربيين أن نكون أكثر وعياً واستنارة فنتخذ موقفاً منصفاً من العرب، غير الموقف الذي دفعتنا إليه الأفكار التي ظل المتعصبون منا يرددونها وقتاً طويلاً (٥٣).

٦- إدوار بروي:

يقول البروفيسور "إدوار بروي" أستاذ تاريخ الحضارات في جامعة السوربون: "ظهر الإسلام كالشهاب الساطع، فحيّر العقول بفتوحاته السريعة، وباتساع رقعة الإمبراطورية الجديدة التي أنشأها، نحن أمام شعب، كان للأمس الغابر مجهول الاسم، مغمور الذكر، فإذا هو يتحد في بوتقة الإسلام "الدين الجديد" الذي انطلق من الجزيرة العربية، فاكتسحت جيوشه في بضع سنوات، الدولة الساسانية "الفرس" وهدّت منها الأركان، ورفرفت بنوده فوق الولايات التابعة للإمبراطورية البيزنطية في آسيا وأفريقيا، ولم تلبث جيوشه بعد قليل، أن استولت على معظم إسبانيا وصقلية، وأن تقتطع لأمد من

(٥٢) انظر: الإمام عبد الحليم محمود. أوربا والإسلام. صـ ٩٠.

(٥٣) انظر: الأستاذ محمود أبو الفيض المنوفي. الإسلام والحضارة العالمية. صـ ٢٢٢.

الزمن -يقصر أو يطول- بعض المقاطعات الواقعة في غربي أوربا وفي جنوبها، ودقّت جيوشه أبواب الصين والحبشة والسودان الغربي، وقد تهاوت الدول أمام الدفع العربي الإسلامي، وتدحرجت التيجان عن رؤوس الملوك كحبات سبحة انفرط عقدها النظيم، وهذه الأديان التي سيطرت على الشعوب والأقوام -الضاربة بين سيرداريا والسنغال- ذابت كما يذوب الشمع أمام النار، بعد أن أطل على الدنيا دين جديد، له من الأتباع والمريدين اليوم ما يزيد على ثلاثمائة مليون إنسان، وانجلى غبار الفتح عن إمبراطورية جديدة ولا أوسع ،وعن حضارة ولا أسطع، وعن مدنية ولا أروع، عوّل عليه الغرب في تطوره الصاعد ورقيه البناء، بعد أن نفخ الإسلام في قسم موات (من التراث الإنساني القديم) روحاً جديدة عادت معه إلى الحياة، فنبض (أي التراث الإنساني) وأشع وأسرى •ولهذه الأسباب مجتمعة، كان لابد وأن يحتل تاريخ العالم الإسلامي، محلاً مرموقاً في ثقافة رجل العصر ،كما كان لابد لرجل العصر هذا من أن يفهم جيداً، أن المدنية لا يقتصر مدلولها على شعب أو بلد متحيز في الزمان. فالتراث الحضاري الإنساني ملك للجميع، وعلى رجل العصر أن يعرف جيداً، أنه قبل (توما الأكويني) الذي رأى النور في إيطاليا، طلع "ابن سينا" - المولود في إحدى مقاطعات التركستان - وأن مساجد دمشق وبغداد وقرطبة، ارتفعت قبابها، قبل كاتدرائية نوتردام في باريس بزمان، وألا ينتقص من شأن العالم العربي الإسلامي من خلال واقعه الراهن، بل علينا اعتبار هذا التاريخ للحضارة العربية الإسلامية من صميم التاريخ الإنساني، المتنوع في الأزمنة والأمكنة، والذي لا يزال على الرغم من جزئياته وخصائصه، تاريخ هذه البشرية الجامعة الجمعاء" [٥٤].

٧- الأمير تشارلز ولي عهد بريطانيا:

يقول الأمير تشارلز : إن هناك قدراً من الجهل بالفضل الذي تدين به ثقافتنا وحضارتنا للعالم الإسلامي. فالعالم الإسلامي في العصور الوسطى كان عالماً ازدهر فيه الباحثون ورجال العلم، ولكن أوروبا تجاهلت ٨٠٠ سنة كانت خلالها عالة على أسبانيا الإسلامية التي حافظت على العلوم والمعارف خلال عصور الظلام. فوضعت الثقافة الإسلامية بالأندلس أساس اللبنات الأولى للنهضة الأوربية. ويقول أن " ريتشارد نيكسون " وهو عدو الإسلام والمسلمين يعترف بفضل المسلمين، فيقول: بينما ذبلت أوروبا في العصور الوسطى تمتعت الحضارة الإسلامية بعصرها الذهبي، وقد أسهم الإسلام بمجهودات هائلة في مجال العلم وفي الطب والفلسفة.

[٥٤] انظر: ادوارد بروي. تاريخ الحضارات العام (المجلد الثالث) فجر الإسلام. صـ ١٠٩.

وينقل عن "ول ديورانت" قوله: إن الرجال العظام الذين حملوا عبء النهضة الأوروبية استطاعوا ذلك لأنهم وقفوا على أكتاف العمالقة المسلمين.

ويختم " نيكسون " كلامه الطويل بقوله: إن تلك الإنجازات التي حققها المسلمون الأوائل تشير إلى ما يمكن أن يحققوه في المستقبل [٥٥].

٨- كويلو بونج:

يقول الأستاذ " كويلو بونج "[٥٦]. في محاضرته التي ألقاها في مؤتمر الثقافة الإسلامية، الذي عقد برعاية (جامعة برنستون) و(مكتبة الكونغرس) في واشنطن عام ١٩٥٣، تحت عنوان: " أثر الإسلام الثقافي في المسيحية ": " وبعد، فهذا عرض تاريخي قصد به التذكير بالدين الثقافي، الذي ندين به للإسلام منذ أن كنا نحن المسيحيين -داخل هذه الألف السنة- نسافر إلى العواصم الإسلامية، وإلى المعلمين المسلمين ندرس عليهم العلوم والفنون وفلسفة الحياة الإنسانية، ولن نتجاوز حدود العدالة، إذا نحن أدينا ما علينا بربحه، ولكن سنكون مسيحيين حقاً، إذا نحن تناسينا شروط التبادل، وأعطينا في حب، واعتراف بالجميل [٥٧].

٩- لويس برنارد:

يقول الدكتور"لويس برنارد" أستاذ تاريخ الشرقين الأدنى والأوسط في جامعة لندن: أن أوروبا تحمل دَيْناً مزدوجاً للعرب:

١- حافظ العرب على الميراث الفكري والعلمي الذي خلفه اليونان وتوسعوا فيه ونقلوه إلى أوروبا.

٢- تعلمت أوروبا من العرب طريقة جديدة للبحث، وضعت العقل Reason فوق السلطة Authority ونادت بوجوب البحث المستقل والتجربة، وكان لهذين الدرسين الفضل الكبير في القضاء على العصور الوسطى والإيذان بعصر النهضة في أوروبا [٥٨].

---

[٥٥] انظر: نص الخطاب الذي ألقاه الأمير تشارلز حول الإسلام والغرب في أبحاث ووقائع المؤتمر العام التاسع للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية- يوليه ١٩٩٧م ص٨١٩.

[٥٦] أستاذ العلاقات الأجنبية بجامعة برنستون. ورئيس قسم اللغات والآداب الشرقية فيها.

[٥٧] انظر: الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة. صـ ٢٥٧ مجموعة محاضرات ألقيت في مؤتمر الثقافة الإسلامية في واشنطن عام ١٩٥٣.

[٥٨] قدري حافظ طوقان. مقام العقل عند العرب. صـ ٢٢٨.

- ويقول "ليبري" لولا إنقاذ العرب كنوز اليونان الفكرية وصيانتهم لها، ولولا تسامحهم وطريقهم في تقديم العقل على النقل، لتأخرت نهضة أوروبا الفكرية عدة قرون [٥٩].

[٥٩] المرجع السابق. صـ ٢٣٠.

obeikan.com

المصادر والمراجع :

أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية. أحمد علي الملا. ط٢. دار الفكر- دمشق ١٩٨١م.
أثر الفلسفة الإسلامية في الفلسفة الأوروبية. عمر فروخ. مطبعة الكشاف. بيروت ١٩٤٣م.
الإسلام في مواجهة الأيديولجيات المعاصرة. د/ عبد العظيم المطعني. ط١. مكتبة وهبة . ١٩٨٧م.
الإسلام والحضارة العالمية. الأستاذ: محمود أبو الفيض المنوفي. الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية. القاهرة ١٩٧٣.
الإسلام والصراعات الدينية. حافظ عثمان. الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٩٤م.
أوربا والإسلام.الإمام عبد الحليم محمود. دار المعارف . القاهرة ١٩٩٣م.
أوروبا العصور الوسطى. د/ سعيد عبد الفتاح عاشور. مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٦م.
بين الديانات والحضارات. طه المدور. بيروت- ١٩٥٦م.
تاريخ الحضارات العام (المجلد الثالث) فجر الإسلام.إدوارد بروي. تراث الإسلام. إشراف : أرنولد . بيروت- ١٩٧٢م.
تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى. د/ عبد المنعم ماجد. ط٥. مكتبة الأنجلو المصرية . ١٩٨٦م.
تاريخ العلم. جورج سارتون. ترجمة : لفيف من العلماء . ط٢. دار المعارف بمصر ١٩٧٠م.
الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة. مجموعة محاضرات ألقيت في مؤتمر الثقافة الإسلامية في واشنطن عام ١٩٥٣.
الفلسفة الحديثة عرض ونقد. د/ أحمد رمضان . ط١. مكتبة الإيمان بالمنصورة . ٢٠٠١م.
في الفلسفة . إعداد : د / إبراهيم بيومي مدكور. ضمن أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية.
معالم الفكر الفلسفي في العصور الوسطى. د/ عبده فراج. ط١. مكتبة الأنجلو المصرية - ١٩٦٩م.
مقام العقل عند العرب. قدري حافظ طوقان. دار المعارف بمصر . ١٩٦٠م.